القدس المعاصِرة التي أعرف

حـــــــــازم نـــســـيـــبـــة

وزيـــــر خارجيـة المملكـــة الاردنية الهاشـمية الاســـبق

الملخص

كتابي بعنوان (Jerusalemites: A Living Memory) (ذكريات مقدسية حية) هو سيرة حياتي على امتداد عقود طويلة، بدءاً من طفولة بريئة في القدس العربية الكبرى الموحدة: شرقيها وغربيها، شمالها وجنوبها، ناهيكم عن أكنافها وضواحيها، وقد كانت في معظمها عربية أرضاً وعمراناً وشعباً. الكتاب يقع في بضع وأربعمائة وخمسين صفحة، وقد وضعته باللغتين العربية والانجليزية؛ صدر بالانجليزية عن مؤسسة الرمال ومؤسسة ميلسند، وتتولى دار رياض الريّس للكتب والنشر في بيروت إعداده للصدور باللغة العربية في المستقبل القريب. الكتاب سيرة ذاتية شخصية، وقد عشتها سنة بعد سنة وعقداً بعد عقد، بحلوها ومرها، عندما كانت القدس إبان الانتداب البريطاني حاضرة فلسطين المزدهرة، ومقر فعاليتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والرياضية، ومقر الحكومة المركزية التي كان أهل فلسطين يشكلون غالبية أطقم دوائرها وأجهزتها، إلى أن حلّت نكبة فلسطين بكل كوارثها واستلابها وشهدائها وشتاتها وتداعياتها التي ما زال الشعب الفلسطيني يعانيها ويكابدها على امتداد بضعة وستين عاماً، وقد تفاقمت المعاناة بالكارثة الثانية المتمثلة في احتلال القدس وسائر الضفة الغربية وقطاع غزة عام 1967، وقد أوجدت معاناة مريرة جديدة مازال الأهل يكابدونها تحت الاحتلال والبطش والاستلاب والاستيطان.

ربما يتبادر إلى الذهن سؤال أو سؤالان: أولاً، لماذا كتاب جديد ولماذا باللغة الانجليزية وقد امتلأت المكتبات العالمية بأعداد لا تحصى من الكتب حول ما جرى في تلك المراحل المفصلية؟، والجواب، أنها كانت في معظمها – إن لم يكن كلّها – كتباً وضعها العدو الصهيوني ومؤازروه؛ بحيث حاولوا طمس، أو تبرير الجريمة النكراء التي ارتكبت بحق شعب فلسطين، صاحب الوطن والأرض منذ فجر التاريخ. معالم القدس التي عشتها ظلت تلازمني طوال حياتي، وحيثما حللت وارتحلت وأينما عملت، بشوارعها ومبانيها وملاعبها وأهلها. وإنني لأخشى أن تضيع صورة تلك الحياة العربية المقدسية بمضيّ من عاشوها وبقاء القلة منهم فقط. والأجيال الجديدة بدورها لا تكاد تعرف إلا أقل القليل عن القدس الشرقية، أما القدس الغربية فهنالك جهل وتعاون وضعف في مواقفنا منها.

لابد، إذن، للعالم الخارجي أن يعلم، وأن نذكره، بأن البيوت والمنازل والمرافق التي يسكنها ويستغلها الإسرائيليون في القدس الكبرى هي في ملك عربي ومغتصب، وليست لليهود، كما يزعمون، إن من حقنا استعادتها وإن طال الزمن. ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى إبراز حقائقها باللغة الإنجليزية، وربما بلغات أجنبية أخرى، إلى جانب العربية.

الكتاب يتحدث بإسهاب – من خلال سيرتي الذاتية – عن القدس والضفة الغربية بعد نكبة 1948، وما تقلدته بعد ذلك من مناصب مهمة حساسة استثمرتها جميعها في خدمة قضية فلسطين ورفع المعاناة عن شعبها الرازح تحت الاحتلال والاستلاب، في محافل العالم المختلفة، وفي منابر الأمم المتحدة، ومن خلال لقاءات عديدة مع قادة العالم بمختلف قاراته.

ومن حسن الطالع أن يتزامن صدور الكتاب مع احتفالنا واحتفال العالم العربي بالقدس عاصمة للثقافة العربية، آملاً أن يشكل هذا الكتاب مساهمة – ولو متواضعة – في إبراز وجه القدس الحضاري.

أعاودُ الحديثَ عن القدس المُعاصِرة، القدس الحديثة، القدس التي أعرف، والتي حُفِرَت مَعالِمها وشوارعها وأزقّتها وتضاريسها، ومَبانيها وساحاتها وأسواقها ومَلاعِبها ومَعاهِدها، في أعماق نفسي وبواطِن عقلي ومَهاجع ضميري.

كيفَ لا وهيَ مَسقطُ رأسي منذ عُقودٍ وعُقود تمتدُ إلى مَشارِف القرن الحادي والعشرين، عندما كنتُ أذرَعُها مَشياً على الأقدام، وهيَ وسيلة النقل الرئيسيّة في تلك الأيام، وأسيرُ في شوارِعها القديمة والجديدة شِبراً شِبراً وحَيّاً حَيّاً وشارعاً شارعاً، في طريقي إلى المدرسة أو المَلعب أو المكتب أو السوق، فتتجمّعُ تلك الذكريات العَذبة وغيرُ العَذبة على حد سَواء في مَكامِن نفسي، لتصبح تاريخاً حَيّاً نابضاً بالحياة، نافِذ البصيرة، جَليّ الرُؤية...

القدس التي أعرف، قدسٌ واحدةٌ مُوحّدة قبلَ أن تقسمُها فاجعة عام 1948، أغلبيّة أحيائِها وضواحيها وبَلداتِها وأكنافِها عربيّة الوجهِ واللّسان، وإن كانت أسماء كثيرٍ من أحيائِها أجنبيّة، لستُ أدري لماذا؟

مثل كولونِيّة الألمان، كولونِيّة اليونان، والطلعة الطليانيّة – إشارة للمُستشفى الإيطالي في وسَطِها – ، والكولونِيّة الأمريكيّة مُقابل منزلي وهيَ جزءٌ من حَيّ الشيخ جرّاح، والمَسكوبيّة في وسَطِ المدينة الجديدة حيثُ المحاكِم العَدْلِيّة، وكنتُ شَغوفاً بحُضورها والاستِماع إلى المُرافعاتِ المُثيرة التي كانت تُتلى فيها، وشارع سان جوليان المُؤدّي لفندق الملك داود، وجمعيّة الشبّان المسيحيّة شاهقة الارتفاع، وطلعة المنزل وهي طلعة المُستشفى الفرنسي وشارع يافا، وغيرها... وغيرها.

هذهِ جميعُها، وكثيرٌ غيرُها، أحياء عربيّة بمِلكيّتِها وأهلِها، وقد رسمَ معالمها وحُدودها بدِقةٍ مُتناهية، قرارُ الأمم المتحدة رقم "181" الصادر في 29 تشرين الثاني سنة 1947، الخاصّ بتقسيم فلسطين، والذي اشتمَلَ من بين ما اشتمَل، على قرار جعل القدس نظاماً دُوليّاً مُنفصلاً قائماً بذاته، CORPUS SEPARATUM" لمُدةٍ عشر سنوات، ثمّ يُستفتى أهلها بعد ذلك بمَصيرها... فإمّا الانضِمام إلى دولةِ فلسطين، وإما إلى الدولةِ اليهوديّة، وإما البقاء كِياناً دُوليّاً مُنفصِلاً.

هذهِ القدس الكُبرى المُعاصِرة التي أعرف، والتي تطوّرَت وتنامَت بسرعةٍ

زمنيّةٍ فائقة بعد عام 1925، لتمتد – بالإضافةِ إلى الحُدودِ البلديّة التي كانت قائمة إبّانَ الانتداب البريطاني على فلسطين –، من قرية أبو ديس والعيزريّة شرقاً، إلى لفتا ورميما، وقرية قولونيا والقطمون وبتير والمالحة ودير ياسين وعين كارم غرباً، ومن شعفاط والعيسويّة شمالاً، إلى بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور وصور باهر وبيت صفافا وإرطاس وشرفات جنوباً...

إنّها تشملُ البلديّات والبَلدات والقرى التي تُشكّلُ في مجموعِها أكنافَ القدس، وتحيطها إحاطة السوار بالمِعصَم، وتُجسّدُ على الأرض عمقها البَشري والجُغرافي والزراعي والاقتصادي، بتكامُلٍ وتوافُقٍ أخّاذ.

إنّها القدس الكُبرى التي خطّطَت الأمم المتحدة لقِيام كِيانِها الذاتي المُؤقت عام 1947، ورصَدَت لها عشرات ملايين الدولارات، ووضعَت لها قانوناً أساسيّاً خاصّاً، مُستعينة بدراسةٍ مَيدانيّة أشرفَ عليها قاضي قُضاة فلسطين البريطاني، السير (وليام فيتزجيرالد) عام 1946 إبّانَ الانتدابَ على فلسطين، مُستنداً في تقسيماتِه الإداريّة والبَلديّة – أيّ رَسم الحُدود – ، على التوزيع السُكّاني والجُغرافي لكلٍ من العرب واليهود.

ومن جُملةِ ما تضمّنهُ قانونها الأساسي، إلغاء الفصل الرابع حولَ الامتيازاتِ الخاصّة، التي كانت الدُول الأوروبيّة قد حصَلت عليها من الدولةِ العُثمانيّة، في فتراتِ ضعفِها وتراجُعِها...

إنّني لا أحاولُ أن أنكرَ الوجود اليهودي في القدس وضواحيها، مُجَسّداً بأحياءٍ كميكور حاييم ورحافيا وموتزا، وميشيرم وغيرها في أواسِطِ القدس الجديدة وغربها، والتي برزت إلى الوجود وتنامَت تدريجيّاً منذ نهايةِ القرن التاسع عشر، عندما أنشأ الثري اليهودي البريطاني (موشي مونتفيوري)، الحَيّ اليهودي المعروف باسمِهِ، في الطريق ما بينَ بابِ الخليل ومطبعةِ الحكومة.

كما لن أحاولُ أن أنكرَ بأنّ مَوجاتِ الهجرةِ اليهوديّة إلى فلسطين إبّانَ الانتدابِ البريطاني، ضاعَفَت من الوجود اليهودي أضعافاً مُضاعَفة، بحيثُ أصبحَ عددُ اليهودِ في القدس الكُبرى مُوازياً لعدد العرب، في حُدودِ مائةِ ألفٍ لكل منهما. بل إنّ اليهود

الذينَ كانت لهم مَقاعد مُساوية للعرب، ضِمنَ أعضاءِ بلديّةِ القدس الاثني عشر، أخذوا يُطالبونَ أوائلَ الأربعينيات برئاسةِ البلديّة، استِناداً إلى مَزاعم عن تفوّقٍ عدَدي لهم.

وقد كانَ موقفُ العرب واضحاً قاطعاً في رَفض تلك المَطالب والادّعاءات، مُؤكّدينَ أن رئاسة بلديّةِ القدس يجبُ أن تكونَ لعرَبي، بغضّ النظر عن الأعداد؛ لأنّ للقدس مَكانة خاصّة كعاصمةٍ لفلسطين، ولها مَكانتها في العالَمَيْن العربي والإسلامي.

ولعَلّكُم تتساءلون: وهل هذا التوسع في آفاقِ القدس ومَعالِمها الجُغرافيّة، ظاهرةٌ جديدة على القدس وأهلِها؟ وماذا يقول التاريخ إجابةً عن هذا التساؤل؟ إنّ التاريخ يُعطينا الجوابَ الشّافي عن هذا التساؤل، إذ يقول (مُجير الدين الحنبلي)، مُؤرّخُ القدس، وذلك قبلَ خمسمائةِ عام في كتابهِ حولَ القدس، ص (59) ما يلي:

"ويُظاهرُ مدينة القدس الشريف من كلّ جهة، كُرومٌ بها أنواع الفواكهِ من العنب والتين والتفاح وغيره، وأحسنُ الأماكن تُعرف بالبقعة، ظاهرُ القدس الشريف من جهةِ الغربِ إلى جهةِ القِبلة، وقف السلطان (صلاحُ الدين) على خانقاه الصوفيّة". ويُضيفُ المُؤرّخُ قائلاً: "وفي البقعةِ وغيرها أيضاً قصورٌ مَبنيّة بالبناء المُحكَم، ومُلاّكها في كلّ سنة يُقيمونَ بها في زمن الصيف عدّة أشهر، ويُنفقونَ أموالاً كثيرة".

ويُعطي المُؤرّخُ تفصيلاتٍ أخرى، عن أحياءِ القدس الغربيّة واستغلالاتِها ص (127)، إذ يقول: "إنّ القاضي (شرف الدين عيسى)، بن شيخ الشيوخ (جمال الدين غانم الخزرجي)، قاضي القدس وشيخ الخانقاة الصلاحيّة، هو الذي حَكرَ أرض البقعة ظاهر القدس الشريف الجارية في وقف الخانقاه الصلاحيّة، في سنةِ ثلاثٍ وتسعينَ وسبعمائة – أيّ قبلَ ستمائةِ عام – ، وصارت كُروماً وزادَ بذلك ريعُها لجهةِ الوقف، ورغبَ الناسُ فيها وكثرَ الانتِفاع بها".

هذهِ هيَ بعضُ أراضي القدس العربيّة، التي أصبحَت في زمننا المُعاصِر أحياءِ القدس الجديدة، في البقعة الفوقا والبقعة التحتا والقطمون والطالبيّة وغيرها، والتي كانت من أجملِ وأنظفِ الأحياءِ السَكنيّة في العالم أجمَع، حيثُ الحدائقُ الغنّاء

والحَجرُ المَنقوش النّاصعُ البَياض، والشجَرُ المُتنامي يُعانِقُ شوارعها على امتِدادِ البصر، وقد شهدَ لها كلّ من عاشَ فيها أو عرَفها من عربٍ وأجانب، حتى نهايةِ الانتداب عام 1948.

فبأيّ بندٍ من بُنودِ حُقوق الإنسان، يقطُنَها غيرُ أهلِها خمسينَ عاماً حتى اليوم ظلماً وعُدواناً؟ وبأيّ حقٍ تُسمّى هذه الأحياء بالقدس الإسرائيليّة وكأنّها أمرٌ مفروغٌ منه، ولا جدالَ فيه، ونتنازعُ ونتجادلُ مع اليهود حولَ حَي ونصفِ حَيّ، بقِيا في حَوزتِنا بعد حرب 1948، خارجَ البَلدة القديمة، وهما الشيخ جرّاح وباب الساهرة. كنّا نُسمّيهِ مَجازاً بعد نكبة 1948، بأنّهُ هو الحَيّ الباقي. ولم يكن يدورُ بخلدِنا بأنّنا سوفَ نفقدُ حتى هذا الحَيّ الباقي عام 1967، ونخسرهُ ليُصبحَ فريسة للاستِلاب والاستيطان الصُهيوني الطاغي.

لقد بدأ توسع القدس المُعاصِر خارجَ أسوار المدينةِ القديمة المَحدودةِ الحَجم، في النصفِ الثاني من القرن التاسع عشر، عندما أصبحَت القدس مرّةً أخرى مَحَط أنظار العالم الغربي، بعدَ انقِطاعٍ كاملٍ أو شِبهِ كامل استمرّ عدّةَ قرون، بعد اندِحار الحَمَلات الصليبيّةِ الأوروبيّة، على فلسطين وسائرِ دِيار العرب والإسلام.

وتتحدّثُ الكاتبة الإنجليزيّة الرَحّالة (ماري روجرز)، شقيقة القنصل البريطاني في القدس وحيفا، في كتابها القيّم الذي وضعَتهُ قبلَ مائةٍ وخمسينَ عاماً، بعُنوان "الحياةِ العائليّة في فلسطين"، كيفَ أنّ القدس عام 1855، هي القدس القديمة التاريخيّة المُسوّرة، وكيفَ أنّ بوّاباتِها كانت تُغلقُ بحُلول الساعة العاشرة من مساءِ كلّ ليلة، ولا تُفتحُ ثانيةً إلاّ عند الفجر، وبإذنٍ شخصي من الباشا المُتصرّف.

وقد وصفَ (بارتلت) و(موري) في كِتابَيْهما في تلك الفترة، "المَشي في شوارع القدس JERUSALEM OF STREETS THE IN WALKING"، و"إعادة زيارة القدس REVISITED JERUSALEM"، وصفاً كاملاً لأحيائها وشوارعها وأزقتِها ومعالِمها وجوامعِها وكنائسِها وسُكّانِها، بحيثُ لم يترُكا مجالاً لمُستزيد، إنّها الشوارعُ والمَعالِمُ ذاتها، التي وصفها قبلهُما بدِقة مُتناهية قبلَ خمسمائةِ عام (مُجير الدين الحنبلي)، باستثناءِ ما آلَ منها للسقوط بفِعلِ التقادُم والتآكُل ومُرور الزمن.

فأنتَ تمشي في شوارعِها وأزقتِها المُبلطّةِ بالحَجر، لتكتشفَ أنّكَ تمشي في الدّرب الذي سارَ فيه السيدُ (المسيح): دربُ الآلام، وتمشي في زقاق قريب من القيامة على بُعد عشرات الأمتار، لتكتشفَ أنّ أميرَ المُؤمنينَ (عُمر بن الخطّاب)، ومعهُ أجلّةَ الصَحابةِ والمُجاهدين، قد مَشى فيه وصلّى راكعاً قبلَ ألف وأربعمائة عام، حيثُ يقوم الآن مسجدُ عُمر الذي أعيدَ ترميمهُ قبلَ ثلاث سنوات، الكُتاب الأجانب يخلطونَ بينَ هذا الجامع، وهو جامعُ عُمر، وبينَ قبّةِ الصخرةِ المُشرّفة، التي يُطلقونَ عليها خطأً اسم "جامع عُمر".

وتذهبُ إلى حارةٍ مُجاورةٍ ومُلاصقة لكنيسة القيامة، لترى مُجمّع الخانقاه الصلاحيّة الشهيرة، التي أنشأها (صلاحُ الدين) قبلَ ثمانمائة عام كليّة للمُتصوّفة من رجال الدين، ويُقالُ إن بطريرك الرّوم الأرثوذكس، الذي كانَ اللاّتين قد أبعَدوهُ وقومهُ عن القدس إبّانَ مملكتهم في القدس، هو الذي أهدى المكان لـ(صلاح الدين) امتناناً لإعادته إلى القدس.

وتتعثرُ أثناءَ مَسيركَ في القدس العتيقة بتكيّة (خاصكي سُلطان)، وهي تكيّة خيريّة تقدّمُ شوربة الفريكة يوميّاً وبانتظام، للمُحتاجينَ من أهل القدس وزُوّارها وحُجّاجها. وكانت (خاصكي سُلطان)، وهيَ مُحسِنة مُتزوجة من سُلطانٍ عُثماني، قد أوقفَتها "حوّلتها وَقفاً" قبلَ خمسمائة عام.

وتُشاهدُ في سَيرك حمّاماً عامّاً هنا وحمّاماً هناك، ورباطاً هنا ورباطاً هناك، وزاوية هنا وزاوية هناك تُمثلُ مُختلف شُعوب العالم وجنسيّاته، كما ترى كَمّاً هائلاً من المدارس الدينيّة والدَنيويّة، وبخاصّة في الأحياء المُحيطة بالحَرم القدسيّ الشريف، ومساحتهُ تُشكّلُ رُبعَ مساحة البَلدَة القديمة المُسوّرة تقريباً. وغنِي عن القول إن المسجدَ الأقصى المُبارك وقبّة الصخرة المُشرّفة، هما أيضاً مدارس تُتلى فيهما الدُروس الدينيّة على اختلافها، وبأوقاتٍ مُنتظمة.

ولا حاجةَ بي إلى تعداد الأديرَة والكنائس، فما أكثرَها في بيت المقدس وما أقدَمَها، وبعضُها يعودُ إلى الألفيّة الأولى. فكنيسة القيامة عمرها 1700 عام، عندما شُيّدَت في عَهد الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين)، الذي اعتنقَ المسيحيّة وجَعلَ

فلسطين ولاية رومانيّة مسيحيّة مُقدّسة، وأطلقَ على القدس اسم "إيليا كبيتولينا"، وهو الاسم الذي كانَ سائداً إبّانَ الفُتوحاتِ العربيّةِ الإسلاميّة.

والمسجدُ الأقصى المُبارك وقبّة الصخرة المُشرّفة، يعودان إلى ألفٍ وثلاثمائة عام أو يزيد. كذلك فإنّ كثيراً من أبنية القدس وأسواقها وطُرُقاتها وممّراتها، تعودُ إلى مئاتِ السنين. بل إنّ القدس القديمة كلّها، تقومُ على طبقاتٍ مُتعدّدة مُتراكمة منَ المباني والأسواق والأنفاق والممّرات، معروفة ومُثبَتة في بُطونِ الكُتب وسِجلّاتِ المحاكِم الشرعيّة، بأسمائِها ومَواقِعها.

وما على الباحثينَ والمُنقبينَ والأثريّين، إلاّ أن يُزيلوا التراب المُتراكم بفِعل الزلازل والتقادُم، ليَكشِفوا النقابَ عمّا تحتها، بما في ذلك المَيدان الرّوماني القديم "الكاردو"، الذي يقومُ فوقهُ سوقٌ تابعٌ لعائلةٍ نسيبة المُسلِمة، هو سوق صبرا الذي ما زالَ مَطموراً حتى الآن.

والقدسُ ساحرةٌ لا مثيلَ لها في طرازها المِعماري وجوهَرها التاريخي، الذي يعودُ إلى عُصورٍ كَنعانيّة ورومانيّة وعربيّة وإسلاميّة، أمَويّة وعَبّاسيّة وفاطِميّة وأيّوبيّة ومَمْلوكيّة وعُثمانيّة، مُنسجمَة انسِجاماً يأخذ بالألباب. ومع أنّ إسرائيل لم تنقطِع إطلاقاً عن حَفريّاتها الواسعة النطاق، في كلّ بُقعةٍ من بقاع القدس وتحتها وحولها، فإنّها لم تعثر على أيّ أثرٍ إسرائيلي، ناهيكَ عن فشلِها في العُثور على ما تزعُم أنّهُ هيكلُ (سُليمان)، فوق جبلِ "موريه"، حيثُ يقومُ الحرَمُ القُدسيّ الشريف.

عشرات الأمتار حُفِرَت تحتَ أساساتِ المسجدِ الأقصى، ومع ذلك فلم يعثُروا على أيّ أثرٍ يهودي، بينما تمّ اكتشاف قصرَيْن أمَويّيْن شامِخَيْن أو أكثر في تلك البُقعةِ من جنوبِ الحرَم، يمكنُ مُشاهدة آثارِهما على الطبيعة.

أليسَ من واجبنا وواجبِ أمّتنا، أن نحافظَ على كلّ شبرٍ وحَجرٍ وأثرٍ ودَربٍ على أرضِها الطهور، وهيَ أرضنا العربيّة منذ وُجِدَت قبلَ آلافِ السنين؟ وبخاصّةٍ أنّ إسرائيل، بكلّ ما تُجسّدهُ من طاقاتٍ عالميّة، تعملُ جاهدةً على استلابِ كلّ شبرٍ فيها، تمهيداً لبناءِ هيكل (سُليمان) مكانَ الحرَم القدسيّ الشريف، أو ربّما بمُلاصَقته عندَ الحائط الغربي، حيثُ البُراق وحائطُ المَبكى الذي وُسّعَ حرَمهُ على حسابِ الأحياءِ

العربيّة، وحيثُ يُؤدّي اليهود صَلواتِهم منذ القرن السادس عشر، أيّ أوائلَ العَهد العُثماني.

ولم يكن اليهود يعرفونَ هذا المكان، إلى أن جاءَ طبيبٌ يهودي أندلسي ممّن طردَهُم الإسبان من الأندلس، لاجئاً إلى تركيا، وأقنعَ المسؤولينَ فيها بالسماح لليهود بالتعبدِ في موقع البُراق، ولم يكن اليهود يُشكّلونَ أيّة قوّةٍ أو خطر فسُمِحَ لهم بذلك. وإنّني أذكرُ – وأنا طفل – صُوراً ومَشاهِد لثورةِ البُراق عام 1929، التي اندَلعَت في شوارع القدس وغيرها من مُدنِ فلسطين، وكانت في أشُدها في الخليل، حيثُ قتِلَ العشراتِ من اليهود مَنعاً لتهويدِ البُراق. وأذكرُ كذلك قصيدةً للشيخ (حسن أبو السعود)، مُفتي الشافِعيّة، وكانَ خطيباً جماهيريّاً مُفوّهاً ارتجَلها، وممّا جاءَ فيها:

لـنـا الـبُـراقُ والـحـرَمْ

لـنـا الحِـمـى لـنـا الـعَـلـمْ

أرواحـنـا أمـوالـنـا

فِـــدى الـبُـراق والـحـرَمْ

إنّ هذهِ الآثار الحَياتيّة، التي ما زالت تنطِقُ بالحَياةِ وبالتراث الأصيل، هيَ الدليلُ السّاطِع والبُرهان القاطِع على بُطلانِ دَعاوى إسرائيل، من أنّ القدس هيَ عاصمةُ اليهود على امتدادِ ثلاثةِ آلافِ عام، وقد احتفلوا بهذهِ المناسبة مُؤخّراً!

وأتساءَلُ وتتساءلونَ معي في نظرةٍ مَوضوعيّةٍ مُجرّدَة: تُرى كم يهوديّاً كانَ يسكُن القدس قبلَ مائةِ عام، أو خمسمائةِ عام، أو ألفٍ وخمسمائةِ عام؟ باستثناءِ فترةٍ قصيرة، بدءاً من القرن الخامس قبلَ الميلاد في ظلّ الغزو الفارسي، وإلى حين ظهور السيد (المسيح) قبلَ ألفَي عام! والقانون الدُولي واضح بأنّ السيادة على أيّ بلدٍ من البُلدان، هي للشعب الذي يكون لهُ فيه وجودٌ مُتواصلٌ مُستمرّ عبرَ الدُهور.

هذا المحَكّ أو الاشتراط القانوني، ينطبقُ على الشعب العربي الفلسطيني في القدس وفلسطين دونَ سِواه، والذي استمرّ بوُجودٍ مُتواصل على أرضَ فلسطين على

مَدى آلافِ السنين، على الرغم الغزواتِ والاجتياحاتِ وأشكال العُدوانِ المُختلفة، بسببِ موقعِ فلسطين الجُغرافي المِفصَلي على مَجامعِ ثلاثِ قارّات.

أعودُ في حديثي إلى القدس الجديدة، التي أخذت في الظهور في النصفِ الثاني من القرن الماضي كما ذكرت، ببداياتٍ مُتواضعة هنا وهناك، ونستقي مَزيداً من المعلومات منَ المُؤرّخة المُعاصرة (ماري روجرز) التي أشرتُ إليها، والتي شاهدَت بنفسِها بداياتِ النُموّ الحَثيث في القدس خارجَ الأسوار، قبلَ مائةٍ وخمسينَ عاماً.

تقولُ المُؤلفة إنّ الأوروبيين القاطِنينَ في القدس، وخاصّةً من لهُم أطفال أو الذينَ وَفدوا من مناطق ذات طقسٍ مُعتدِل، يَقضونَ فصولَ الصيف من حُزيران إلى أيلول، في خيامٍ يُقيمونَها في ظاهِرِ القدس على بُعدِ ميلٍ واحدٍ من المدينة. ويذهب الرجال منهم إلى أعمالِهم في المدينةِ صباحاً، ويعودونَ إلى عائلاتِهم في المُخيّم قبلَ الغروب.

وفي تلك الفترةِ المُبكرة، نبدأ بسَماع أسماءِ من أصبحوا معروفينَ في القدس في بدايةِ القرن الحالي، مثلَ المُطران (جوبات) الذي أنشأ الإنجليز مدرسة باسمهِ بالقُربِ من قلعةِ النبي (داود)، وأسماءِ غيرهِ من قساوسةِ الطائفةِ البروتستانتيّة في القدس، وهم طليعة الزحفِ الأوروبي والأمريكي على القدس وفلسطين والشرق الأدنى، والذي تزامنَ مع زحفٍ مُماثلٍ على سوريا ولبنان، حيثُ أقامَ القساوسةِ الأمريكيّونَ فيها الكليّة البروتستانتيّة، التيً أصبحَت الجامعة الأمريكيّة الشهيرة في بيروت.

كانت هذهِ المُخيّمات الصيفيّة السنويّة من أجمل وأعذبِ المُتَع، التي استمتعَ بها أهلِ القدس والأوروبيّونَ من سُكّان القدس في تلك الأيام سَواء بسَواء، وقد بدأها أوّلَ من بدأها المستر (فِنْ) قنصل بريطانيا في القدس، الذي شيّدَ أوّلَ منزلٍ صغيرٍ لهُ من الحَجر في حَيّ الطالبيّة... هذا الحَيّ الذي أصبحَ من أجمل أحياءِ القدس الجديدة في الأربَعينيات، والذي أعرفُ فيهِ بيوت عددٍ من العائلاتِ العربيّة المعروفة قبلَ النكبة، كعائلاتِ (طنّوس) و(الجمَل) و(سعيد)، وغيرها ممّا لا مجالَ لحَصره.

وما أن جاءَ عام 1861 حتى كانت قد بدأت حركة عُمرانٍ كبيرة، في ضواحي القدس الغربيّة والشرقيّة والشماليّة والجنوبيّة خارجَ الأسوار. وأخذت تُرصعُ تلك

المناطق قصورٌ كبيرةٌ فخمة، تُلبّي احتياجاتِ الأسَر الكبيرة وفقَ التنظيماتِ الأسَريّة في تلك الأزمان.

لقد عشتُ في واحدةٍ من تلك المَباني الفخمة في حَيّ بابِ الساهرة، الذي كانَ شجرُ الصنوبر و"حبّ قريش" يُغطّي حَدائقه، وكانت تتألفُ الواحدةِ منها، من زُهاء عشرينَ إلى ثلاثينَ غرفة أو يزيد، وقد استوعبَت تلك المنازل في زمنٍ لاحِق مُستشفياتٍ ومدارس كبيرة معروفة، كمدرسةِ التمرين ورئيسها (طلعت الصّيفي)، والكليّةِ العربيّة ورئيسها (أحمد سامح الخالدي)، ومُستشفى دانزجر وغيرها.

وشُيّدَت في أوائل القرن أيضاً الأوجستا فكتوريا على جبل الزيتون، التي نزلَ بها (ولهلم) إمبراطور ألمانيا. وفي النصفِ الأخير من القرن الماضي، تبرّعَ المليونير الإنجليزي اليهودي (موشي مونتفيوري) ببناءِ حَي يحمل اسمه لفقراء اليهود، وما زالَ هذا الحَيّ قائماً، على الرغم من الدمار الذي لحِقَ بهِ في حرب عام 1948.

لقد كانَ المُواطنونَ المَقدسيّون في تلك الحِقبةِ المُبكّرة كُرَماءَ واسِعي الصَدر، في مُعاملتِهم للأقليّةِ اليهوديّة التي كانت تقطنُ في مدينتِهم. وتتحدّثُ الكاتبة (روجرز) عن مَعتوهٍ يهودي، كانَ يتجوّلُ باستمرارٍ في شوارع القدس القديمة بلباسه الرّث وطلعتهِ المُزرية، وكانَ يصيحُ بأعلى صوتهِ بأنّ القدس سوفَ تُصبحُ خراباً يَباباً، وأنّ النارَ سوفَ تأتي عليها بسببِ ذنوبها. ولم يكن الناس يعترضونَ سبيلهُ بل يُعاملونهُ بالحُسنى والتندر، ويُحيطُ بهِ الأولاد وهم يَحُثونهُ على مَزيدٍ من النَبوءات!

وقد أخذ يقطنُ القدس في النصفِ الثاني من القرن التاسع عشر، بعض العائلات الأوروبيّة من جنسيّات إنجليزيّة وفرنسيّة وألمانيّة وروسيّة ونمساويّة ويونانيّة، ومُعظمُ أفرادِها من رجال الدين ونِسائه والمُبشّرين والمُعلّمين والحُجّاج، الذينَ لطوائفِهم عَلاقة بكنيسةِ القِيامة وغيرها من الكنائس والأديرَةِ المعروفة. وكانَ أهل أوروبا قد انقطعوا عن زيارةِ فلسطين وبلادِ المَشرق قروناً مُتلاحقة، نظراً لصُعوبةِ الذهابِ إليها أو الإقامةِ فيها، ولجَهلِهم بلغتِها وتقاليدِها وأهلِها، ممّا جعلهُم أناساً غريبي الوَجه واللِسان وفِئة شاذة غير مَرغوبٍ فيها.

وأذكرُ جيّداً الحُجّاج والقساوسةِ الرّوس ذوي القاماتِ الطويلة والذقونِ

المُرسَلة، الذينَ كانوا يحُجّونَ إلى القدس وأريحا، وينزلونَ في دَير جبل قرنطل الشاهق الارتفاع في أريحا، والذي كنّا نتشوّقُ لصُعودهِ في طُفولتِنا، رُغمَ المَشقة، وذلك من أجل أن نحفِرَ أسماءَنا على جُدران قِمّتِه.

كانت الأحياء في القدس القديمة مُقسّمة بصفة عامة كما هيَ اليوم، وإن كانت تجمعُها وحدَةُ الوجودِ كمدينة، والسوق الرئيسي الذي يمتدُ ما بينَ بابِ العامود شمالاً، وبابِ الخليل جنوباً كقاسِمٍ مُشترك أعظم. كانَ الحَيّ اليهودي في جَنوب المدينة أكثر الأحياءِ تداعياً وخراباً، بشَهادةِ الكاتبة (ماري روجرز). وكانَ حَيّاً صغيراً، بطبيعةِ الحال، يضُمّ كَنيسَيْن مُتواضِعَيْن ومدرسة تضُمّ بضعَ عشرات من الفتياتِ اليهوديّات، ومُحاطاً بأحياءٍ إسلاميّة، كحارةِ المَغاربَة وحارةِ الشرف والحَيّ الجنوبي الغربي حيثُ يُوجدُ دَير الأرمَن.

وكانَ الأوروبيّون يقطنونَ حارة النصارى، إذ تُوجدُ كنيسة القِيامةِ وغيرها من الكنائسِ والأديرَة، كدَير اللاّتين والكنيسة اللّوثريّة وعددٌ من القنصُليّاتِ الأجنبيّة. أمّا الشمالُ الشرقي والغربي، فيَضُمّ مُعظمَ الأحياءِ الإسلاميّة كبابِ حُطّة وبابِ السلسلة، بالإضافةِ إلى سوق المدينةِ الرئيسي المُمتد، كما ذكرت، من بابِ العامود حتى بابِ الخليل، وهو يقومُ على "الكاردو" الرّوماني ويَمر فوقَ درب الآلام، أمامَ عَمارةِ كليّة روضةِ المَعارفِ الوطنيّة التي تعلّمْتُ فيها، والتي أصبحَت اليوم المدرسة العُمَريّة.

ومنازلُ القدس منازل عميقة الجُدران قويّة البُنيان، ومَبنيّةٌ من الحَجر الفلسطيني المشهور في ضواحي القدس وبيت لحم. وهي مُصمّمة بحيثُ تحفظُ الجوّ لطيفاً حتى في ساعاتِ الظهيرةِ الحارّة، وقد تأثرَ تأثيثها في أواخر القرن الماضي بالمُؤثراتِ الأوروبيّة، بحيثُ أصبحَ خليطاً بينَ الشرقي والغربي. ولكلّ منزل - كما تعلمون - بئرٌ لجَمع أمطار الشتاء، وهو تقليدٌ منذ أقدَم الأزمان لأنّ مَكامنُ الخطر على القدس وأهلِها، كانت دائماً ترتبطُ بقَطْعِ المِياهِ عن المَدينة.

ولم تكن في القدس وضواحيها وأكنافِها، في قدس القرن التاسع عشر، طُرُقٌ تسمَحُ باستخدام العربات التي تجُرّها الخُيول كما في أوروبا وأمريكا، سِوى مسافةٍ قصيرة ما بينَ القدس وبيت لحم. وكانَ الناسُ يُسافرونَ على ظُهور الخيل والدَواب،

عَبرَ الجبال الصخريّةِ الوعرَةِ الشديدةِ الانحِدار في مُعظمْ مواقعِها، في طريقِهم إلى كنيسةِ المَهد التي شيّدَتها الإمبراطورة (هيلانة) عام 327 ميلاديّة. ولم تُشَقّ الطرُق التي تسمَحُ باستِخدام العربات ثم السيارات، إلاّ في بدايةِ هذا القرن.

وكانت العربات هي وسيلةِ النقل المُختارة في العِشرينيات وبدايةِ الثلاثينات، عندما شهدَت المدينة ظاهرة الباصات، وهي تشُق طريقها على استِحياءٍ كوسيلةِ نقل عَصريّة. كانت هنالك ثلاثة خُطوطٍ رئيسيّة لشركاتِ الباصات، أوّلها الخطّ ذو الرقمِ 33، الذي ينقلُ المُواطنين من الشيخ جرّاح حتى بابِ الخليل وشارع ماميلا، وشارع ماميلا أو "مآمن اللّه"، كانَ السوق التجاري الرئيسي للقدس ويرتبطُ بباب الخليل، وفيهِ عمارةِ الأوقافِ الإسلاميّة التي نُظّمَ فيها المَعرضُ العربي الكبير عام 1930، ومَقبرةِ مآمن اللّه الشهيرة، التي تضُمّ رُفات الصّحابةِ والمُجاهدين والشُهَداءِ على مَرّ العُصور الإسلاميّة.

كانَ منظراً فريداً رُؤية الوُجَهاء في بَدلاتِهم الناصعةِ البياض صيفاً، وهم يتسامرونَ في الباص وكأنّهم في ديوانِ ضيافة، ويتنافسونَ بأعلى صوتِهم على من هو أحَقّ بدَفع أجرةِ الرّاكب الجديد، خلالَ صُعودهِ إلى الباص... ويقفُ الباص دقيقة أو دقيقتيْن حتى يُبَتّ في الأمر، ويُطلبُ من السائق أن يكونَ حَكَماً بينهم. وكانَ للعربِ أيضاً الباص رقم 4، الذي يعملُ من بابِ الخليل حتى حَيّ القطمون، وخطّ رقم 6 الذي يعملُ بينَ بابِ الخليل والبقعة الفوقا، وما بينهُما من أحياء.

أمّا اليهود في المناطق المُجاورة فكانَ لهم خطّ رقم 9، الذي يعملُ بينَ مُجمّع الجامعةِ العِبريّة ومُستشفى هداسا على جبل سكوبس، وبينَ الأحياءِ اليهوديّةِ في غربِ القدس.

لقد ركبتُ في هذا الباص بضعَ مرّات عندما كانَ يتأخّر الباص العربي عن الوصول، ومازلتُ أذكرُ كيفَ أنّ كلّ راكب يهودي يصعدُ إلى الباص، كانَ يُخرجُ من جيبهِ مليماً واحداً أو قطعة سُكّر، يضعها في صُندوقيْن مُثبّتيْن أمامَ سائق الباص، تبرعاً للصندوق القومي اليهودي. نعم، هكذا كانَ اليهود يُخطّطونَ ويُنفذون لإنشاءِ الوطن القومي اليهودي، بالمِلّيم وقطعةِ السُكّر، غيرَ مُتكِلين أو مُعتمِدين على المُساعداتِ

الكبيرة فحَسب، التي كانت ترسِلها لهم اليهوديّةِ العالميّة، على وفرَتِها وانتظامِها.

من الجدير بالذِكر، أنّ الهاتفَ دخلَ القدس أواخرَ العِشرينيات. كما أنّ المَجاري شُيّدَت في القدس في تلك الفترةِ الزمنيّةِ المُبكّرة؛ لأنّ إنشاءَها، تسبّبَ في اقتِطاع ثُلثي حديقةِ منزل العائلة من الناحيةِ الغربيّة. وكم من العواصِم العربيّة، حتى يومِنا هذا، تفتقِرُ إلى مَجارٍ حديثة، تُبعِدُ عنها الأوبِئة ومُخلّفاتِ العَيْش؟

وكانَ للقدس مَعاهد ومدارس وطنيّة وأجنبيّة كثيرة، يَصعُبُ تَعدادُها. فلكلّ بلدٍ أوروبي مدرسة أو أكثر في القدس، تحملُ ثقافة ذلك البلد الأوروبي. لقد كانت مدرسة الأسوج السويديّة في حَيّ المصرارة، أوّلَ مدرسةِ أطفالٍ ألحَقني والدي بها. وكانت للبَنين والبنات المدارسُ الإنجليزيّة، والألمانيّة والإيطاليّة والأمريكيّة والفرنسيّة واليونانيّة وغيرها، ناهيكُم عن المدارس الدينيّة المُلحَقة بالأديرَةِ والكنائس.

وكانت تقفُ إلى جانبها كالطّود المدارسُ الوطنيّة والحُكوميّة، منذ العَهدِ العُثماني حتى نهايةِ الانتدابِ البريطاني على فلسطين، كالكليّةِ العربيّة الشهيرة والرشيديّة والإبراهيميّة. وكانَت الرياضة مُنتشِرة ومُتطوّرة، والملاعِب مُتيَسرة في مُختلفِ المناطق. وكانت الأندِية تنتشرُ كالهَشيم منذ أواخر العِشرينيات، حيثُ أنشِئَ النادي العربي ونادي الرّوضة والنادي الأرثوذكسي، والنادي الأهلي العربي والإسلامي اليافاوي، ونادي شبابِ العرب الحيفاوي، وغيرها من فِرَق المدارس الكثيرة، التي كانت تتنافسُ فيما بينها على التفوّق.

ومنذ عام 1930 أصبحَ في القدس مَعْلَمٌ ثقافي ورياضي ضخم، هو جمعيّة الشُبّان المسيحيّة. وهو أكبرُ مُجمّع لهذهِ الجمعيّةِ في العالم، وقد بناهُ ثري أمريكي، نجا من الكارثةِ الاقتصاديّة التي حلّتْ بالعالم عام 1929 – 1930. كانَ هذا الموقع المُواجه لفندق الملك داود، أحدَ أهم مراكز تجمُع الشبابِ العربي الرياضي إبّانَ الانتداب، وكانَ ملعبُ كرةِ القدم فيه، مَيدانُ التنافس الرياضي بينَ الأندِيةِ المُختلفة.

وأذكرُ جيداً المُباراة التي جرَت على هذا الملعب، بينَ مُنتخبِ فلسطين العربي ومُنتخبِ بريطانيا المشهور الـ WONDERERS، إبّانَ الحربِ العالميّةِ الثانية، وقد انتهت بفوز الإنجليز علينا بخمسةِ أهدافٍ مُقابل ثلاثة، وكانَ هَذا الصّرحُ الرياضي يضُمّ

العَديدَ من ملاعب التنس، التي كانت تُقامُ عليها بُطولات فلسطين.

ولئن كانت الرياضة والدراسة ظاهِرَتيْن بارزَتيْن في حياة القدس المُعاصِرة، فلقد كانت السياسة بل العمل الوطني والقومي والديني، هو الظاهِرة الأكبر والأهمّ؛ لأنّ الناس كانوا على وَعي كبير بالأخطار المُحدِقة بهم وبمصيرهم وبمدينتهم المُقدّسة، منذ وقت مُبكّر من هذا القَرن. ففي القدس زعامة الحركة الوطنيّة والدينيّة، مُمثلة باللّجنة التنفيذيّة والتآلف الإسلامي المسيحي، ثمّ الهَيئات العربيّة العُليا المُتعاقِبة، وأخيراً وليسَ آخراً، المجلسُ الإسلامي الأعلى بكلّ ثِقله الديني والدنيَوي.

كما مثّلَ مركز الحُكومة البريطانيّة المُنتدَبة وجيشها، ومركز الوَكالة اليهوديّة وقنصُليّات مُختلف دُول العالم. ومن أبرز التظاهُرات الوطنيّة والدينيّة السنويّة المُنتظمة، مَواسمُ النبي (موسى) التي كانت تجمَعُ المُواطنينَ من مختلف أنحاء فلسطين، وخاصة من نابلس والخليل، ليَلتقوا مع بَيارق القدس وأعلامِها أصحابُ التاريخ العَريق، في مَسيرات ومَهرجانات حاشِدة تغُص بها شوارعُ القدس القديمة والجديدة، وتُنشَدُ فيها الأناشيد الوطنيّة والدينيّة، ويُندّدُ فيها بوَعد بلفور والوطن القومي اليهودي والصُهيونيّة.

وكيفَ أنسى أهازيجَ مَواكِب الخليل المَهيبة القادِمة من الخليل يوم الجُمعة، وهيَ تمشي في صُفوفٍ رتيبة وحماسةٍ هادِرةٍ صادِرة من الأعماق، وهيَ تُنشِدُ أهازيج مَطلعُها:

صُهيوني خُذ رَبعَكْ وسير هاذي البلاد بلادنا

وكذلكَ مَواكِب نابلس السريعة الحركة، تتخلّلُها ألعابُ السّيفِ والتِرس المُتوارثة جيلاً بعدَ جيل، منذ كانَ السّيفُ والترسُ سِلاحَنا في الفُتوحات، مثلما كانَ سلاحَنا في الدفاع عن حِمى الدِيار، وما أكثرَ الحروب والصراعات، التي تحمّلتْ أوزارَها القدس وسائرُ فلسطين عبرَ العُصور. وكانت أعيادُ النبي (موسى)، بطبيعة الحال، مناسبة ذهبيّة للباعة الجائلين بألبسَتِهم المُزركَشة ومأكولاتِهم التقليديّة المُحبّبَة إلى الأطفال بشكل خاصّ، كغزل البنات والدندُرمة بأنواعِها، والحلويات التي توارَثها صُنّاعها جيلاً بعدَ جيل.

ومن بَواكير الاهتمام الإسلامي العالمي المُعاصر بالقدس ومصيرها، المُؤتمر الإسلامي الذي عُقِدَ في قاعة كليّة روضة المَعارف المُشرفة على الحرَم القدسيّ الشريف، والتي شهدَها زُعماء العالم الإسلامي، وفي مُقدّمتهم مَولانا (شوكت علي)، زعيمُ مُسلمي الهند قبلَ تقسيمها بينَ الهند والباكستان وبنغلادش. كنتُ في الصفّ الثالث الابتدائي عندما عُقِدَ مُؤتمر عام 1931، وكنّا مشدوهينَ كأطفال بمُشاهدة هذا التجمّع الإسلامي الكبير، دونَ فَهم مَغزاهُ ومَعناه. كما وقفنا مَشدوهين على أسطح كليّة روضة المَعارف لمُشاهدة بالون زبلن الألماني العظيم، الذي حَلّقَ فوقَ القدس القَديمة لمُشاهدة مَعالمها التاريخيّة.

كما أذكرُ مُظاهرات أواخرَ العشرينيات وأوائل الثلاثينيات الحاشدة، التي قادَتها اللّجنة التنفيذيّة برئاسة (موسى كاظم باشا الحسيني) في شوارع القدس، عندَ الباب الجديد بينَ القدس القديمة والجديدة، وقد مشى والدي (زكي عبد الرحيم نسيبة) في مُقدّمتها هو وزملاؤهُ أعضاءُ اللّجنة التنفيذيّة، على الرُغم من كِبَر سِنّهم والمَخاطر المُحدِقة بهم، والتي تعرّضوا لأشد منها في مُظاهرة يافا الكُبرى في اليوم التالي، وكانت تنتهي باشتباكات عنيفة دامية يسقطُ فيها الشُهَداء والجَرحى.

كما أذكرُ رصاصة يتيمة اخترَقت حُجُبَ الظلام وهُدوء اللّيل، في ليلة وادعة من ليالي القدس عام 1936، تبيّنَ فيما بعد أنّها كانت الإيذانَ ببدء ثورة 1936، التي قادَت إضراباً استمرّ ستة أشهر مُتواصلة. وكانَ لها كِفاحٌ مجيد وتضحيات كبيرة، ثلاث سنوات طِوال. كانت تلكَ الرصاصة التي أطلقت في الهواء رصاصة ذاتَ دلالة كبيرة ووَقع عظيم؛ ذلك أنّهُ لم يكن يخطرُ ببالِ أحدٍ في تلك الأيام، أن يتعاملَ مع المُستعمِر البَريطاني بالرّصاص!

لم تفعل الهندُ ذلك بملايينها الثلاثمائة، وها هم عربُ فلسطين يبدؤونَ ثورة مُسلّحة على بريطانيا العُظمى، التي لم تكن تغيبُ عنها الشمس. فيا للغرابة أن نرى شُعوبَ العالم كافّة وقد نالت استقلالها وسيادتها، في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاّتينيّة، بينما ما يزال الشعب الفلسطيني، وهو أوّلُ من ثارَ على الاستعمار والمُستعمِرين بالحديدِ والنار، يرزحُ تحتَ نير الاحتلال.

لقد أشرتُ إشارة عابرة، إلى بَواكير الاتصالات الجَديّة بينَ أوروبا والقدس في القرن الماضي، عِلماً بأنّ الدُول التي بدأت التصنيع في أوروبا، وهي بريطانيا وفرنسا وهولندا، كانت على اتصالات تجاريّة كبيرة مع شمال فلسطين منذ القرن الثامن عشر، حيثُ كانت تشتري من الجليل أفخرَ أنواع القطن الذي تنتِجُهُ أراضي فلسطين الخصْبة، في منطقةِ طبريّا ومرج ابن عامر وسائر الجليل.

ولكن الاهتماماتِ الدينيّة المُتّصلة بالقدس، بدأت بينَ السُلطان (سليمان) و(فرانسيس الأوّل) ملك فرنسا منذ عام 1535، وكانت على هامشِ تنظيم العلاقات الاقتصاديّة بينَ فرنسا والإمبراطوريّةِ العُثمانيّة، وقد وُقّعَ الاتفاقُ بينهما عام 1569.

هذه الإتفاقيّة وما تبعَها لها أهميّة خاصّة، من حيثُ إنها نصّت على ما أصبحَ يُعرفُ بالامتيازاتِ الأجنبيّة، كما نصّت على تعيين قناصل لحمايةِ مصالح الدول المُتعاقدة. لقد كانت تلك الاتفاقيّات مُتكافئة في بداياتِها، وتُعطي حُقوقاً مُتساوية مُتبادَلة للفريقَيْن المُتعاقِدَيْن. ولكنّها، ومع اضمحلال الإمبراطوريّةِ العُثمانيّة، أصبحَت قيْداً على سِيادةِ الدولةِ العُثمانيّة، وعلى أهل البلاد بطبيعةِ الحال. وقد نصّ قرار الأمم المتحدة الخاصّ بتدويل القدس، على إلغاءِ الامتيازاتِ الأجنبيّة في نظام القدس التأسيسي؛ لأنّها مُهينة وتنطوي على تمييزٍ في المُعاملةِ بينَ المُواطنينَ والأجانب.

وفي مصر مثلاً ظلّت الامتيازاتِ الأجنبيّة وما يتبعُها من مَحاكم مُختلطة قائمة، حتى أُلغِيَت في مُعاهدة عام 1936، التي نالتْ بمُوجَبها مصر استقلالها عن بريطانيا، وإن كانَ استقلالاً مَنقوصاً آنذاك، بسببِ بقاء القواعدِ العسكريّةِ البريطانيّة على أراضي مصر في منطقةِ قناةِ السويس، لفترةٍ من الوقت.

كانت فرنسا سبّاقة في إنشاءِ أوّل قنصُليّةٍ لها في القدس عام 1621، وكانت مهمّتها تنحصرُ في الأماكن المُقدّسة، وتتمتّعُ بالحصاناتِ التي وفّرَتها الفقرَتان الخامسة والسادسة، من اتفاقيّةِ الامتيازات. وتبعَتْها النمسا عام 1642، وبولندا عام 1676، وبمُوجَبِ مُعاهدةِ كارلويتز نالت النمسا حقّ التكلّم، دِفاعاً عن المصالح المسيحيّة عام 1699.

وفي عام 1840 حصلَ القنصُل البريطاني، من والي مصر (محمد علي) باشا وابنهُ (إبراهيم) باشا، على مُوافقة لتلبيَة طلب اليهود، تبليط جُزءٍ من الساحة الضيّقة أمامَ حائط المَبكى. وقد رفضَ المجلسُ الاستشاري المَقدسي الذي كانَ قائماً في القدس هذا الطلب، وصَرَف النظر عنه. وكانَ قد وقعَ تغييرٌ كبير في الوضع القائم عام 1808، عندما شبّ حريقٌ كبير في كنيسة الأرمَن، انتشرَ بسرعة ليأتي على قبّة القيامة الخشبيّة، التي هوَت إلى الأرض وهيَ تشتعل.

لقد كانَ التنافس شديداً بينَ الغربيّين واليونانيّين، الذينَ كانت لهم حَظوة لدى العُثمانيّين في الإدارة والحُكم، انتهَت بإعطاء حقّ الإصلاح للكنيسة الأرثوذكسيّة الشرقيّة. ويَدّعي المُؤرّخونَ الغربيّون أنّ شكلَ قبّة القيامة بعدَ إصلاحِها عام 1808، يختلفُ تماماً عن الشكل الذي ظلّت عليه منذ الحروب الصليبيّة.

كما أنّ الكُتابَ والمُؤرّخينَ الغربيّن، على اختلاف مَشاربهم، يتَهمونَ العُثمانيّن بالإهمال والتعسّف وسوء الإدارة في سُنجق القدس، الذي كانَ يضُمّ القدس والخليل وبيت لحم. وفي مُعظم الأحيان كانَ سُنجق القدس تابعاً لدمشق، التي كانت ترسلُ لإدارته مُتصرّفاً.

إنّني لستُ في صَدد الدفاع عن الحُكم العُثماني، الذي أصبحَ في آخر عُهود الدولة قائماً على الفساد والظلم والجَهل، ولكن، ومع إدراكنا لمَفاسد الإدارة العُثمانيّة المُتأخّرة، فإنّهُ يتبيّنُ لنا بوضوح تحامُل جميع الكُتاب الغربيّن، لا على العُثمانيّنَ فحَسْب، ولكن على الإسلام كدين وعَقيدة، وعلى العرب والأتراك كشعب وقوم. ونرى ذلك الحِقدَ القاتل والكَراهيةَ العَمياء، في كتابات المُؤلف الفرنسي الشهير (فرنسوا شاتوبريون)، مُؤلف كتاب "عبقريّة المسيحيّة"، الذي زارَ القدس ولم يمكُث بها سِوى أربعة أيام.

فكيفَ يمكنُ لهُ أو لغيره أن يحكُمَ على القدس وعلى طبيعة الحُكم فيها، وقد أقامَ في المدينة أربعةَ أيام فقط؟ يقولُ هذا المُؤلف أنّ الباشا المُتصرّف هو عدُوّ المُواطنينَ في القدس، وأنّهم – أي المُواطنين – ، دَأبوا على إغلاق حوانيتهم كلّما جاءَ إلى القدس مُتصرّفٌ جديد، خوفاً من النّهب والضرائب الفادحة التي كانت تُفرَضُ

عليهم. وجَديرٌ بالذكر أنّ أيّ مُتصرّف، لم يكن يمكُث في منصبِه أكثرَ من عام أو بعضَ العام، بحيثُ يَضطَرّ المُواطنونَ إلى تجديدِ دَفع الضرائب والعَطايا المَفروضةِ عليهم، لكلّ مُتصرّفٍ جديد.

وكذلكَ نرى التحَيُّز في كِتاباتِ كلٍ من (كونستاين فولني) عام 1784، و(روبرت كيرزن) عام 1834، الذي وصفَ القتالَ الشرسْ الذي وقعَ في باحاتِ كنيسةِ القيامة بينَ الأرمَن واليونان، بحُضورِ (إبراهيم) باشا نفسه إبّانَ احتِفالاتِ "سبت النّور". وقد نجا (إبراهيم) باشا من تلكَ الواقِعةِ بأعجوبة، وبفضلِ رماحِ حَرَسِه، التي ذهبَ ضحِيّتَها العشرات بينَ قتلى وجَرحى.

إنّ هؤلاءَ المُؤرّخينَ والرحّالة والكُتابِ الغربيّين، هم الذينَ عرّفوا العالمَ الغربي على بلادِنا وأوضاعِنا وعناصرَ ضعفِنا وقوّتِنا، قبلَ عُقودٍ من مجيئِهم إلينا، بعدَ انتصارِهم على العُثمانيّين في الحربِ العالميّةِ الأولى. كما أنّ كِتاباتِهم أجّجَت العَداوةَ والبَغضاء، التي كانت تحمِلها دُول أوروبا وشعوبها ضدّ الإسلامَ والمُسلمين، وليسَ فقط ضدّ العُثمانيّين.

لقد كانَ الأوروبيّونَ والأمريكيّونَ المُتحدّرونَ منهم، يحملونَ في أعماقِ نفوسِهم إرثَ الحروبِ الصليبيّة وهزيمتهم فيها واستعدادهم للثأر، كما أنّ فُتوحاتِ العُثمانيّين في البَلقانَ ووصولَهم إلى بوّاباتِ فيينا، كانت تُذكي فيهِم روحَ العَداءِ للإسلام والمُسلمين.

فلا عجبَ – إذن – أن نرى الجنرال (اللنبي) قائد قوّاتِ الحُلفاء، يقولُ قولتهُ الشهيرة عام 1917، عندما دخلَ القدسَ فاتحاً وتسلّمَها من أهلِها: "الآنَ انتهَت الحروب الصليبيّة"، مع أنّ العربَ كانوا حُلفاء الإنجليز في حَربهم ضدّ الدولةِ العُثمانيّة. لقد حاولَ كثيرٌ من المُؤرّخينَ البريطانيّين نَفيَ تلكَ المَقولةِ المَنسوبةِ إلى الجنرال (اللنبي)، مُؤكّدينَ رأيهُم بأنّها ليست أكثرَ من بنت خيال مجلّة "بانش الهَزليّة" الشهيرة، ومُؤلف صُورها الهَزليّة الذي نشرَ كاريكاتوراً بهذا المَعنى. وكان (بيتر باتنر) في كتابِه "إله المعركة"، آخرُ من يُؤكّدُ عدمَ صِحّةِ المَقولةِ المَنسوبةِ إلى الجنرال (اللنبي).

ولكن ما الحقيقة؟ لقد استمَعتُ قبلَ أيامٍ فقط، إلى قولٍ موثوقٍ به ثقة تامة يُؤكّدُ

صُدورَ تلكَ المَقولةِ عن (اللنبي) عندَ دخولهِ القدس، ولكن ليسَ في بابِ الخليل حيثُ تسلّمَ مفاتيحَ المدينة، بل سمعتها من ابنِ عمٍّ لي هو المُهندس (أحمد فؤاد نسيبة)، وكانَ قد سمعَها من أبيهِ مُباشرة الذي عملَ ضابطاً في الجيشِ العُثماني، وقد سمعَها بدَورهِ مُباشرةً من أبيهِ (عبد اللطيف)، الذي كانَ يقفُ أمامَ كنيسةِ القِيامة لاستقبالِ (اللنبي).

فبعدَ أن طافَ (اللنبي) بكنيسةِ القِيامة، طلبَ من (عبد اللطيف) مَفاتيحَ القِيامة، وعندما استلمَها قالَ قولتهُ الشهيرة: "الآنَ انتهَت الحروب الصليبيّة". وبعدَ أن أتمّ زيارتهُ للكنيسة، التفتَ إلى (عبد اللطيف) قائلاً: "الآنَ أعيدُ لكَ المَفاتيح، ولكنّها هذهِ المرّة من (اللنبي)، وليست من (عُمر) أو (صلاح الدين)"! وقد أرسلتُ رسالةٍ بهذا الشأن إلى صحيفةِ التايمز اللندنيّة، ولكنّها لم تُنشَر حتى الآن.

ولماذا نشُكّ بأنّ (اللنبي) قد قالَ بالفعلِ قولتهُ الصليبيّة المُتعَجرفَة، ونحنُ نعرفُ من قراءةِ التاريخِ المُعاصِر، الأفكارَ التي كانَ يحملها قادة الفكر والسياسة في المُجتمع البريطاني، في القرنَيْن التاسع عشر والعِشرين، والتي تجسّدَت أبشعَ تجسيدٍ في وعدِ بلفور المَشؤوم، لإنشاءِ وطنٍ قومي يهودي في فلسطين؟

كما أنّ القائد الفرنسي (غورو) قالَ قولاً مُماثلاً عندما دخلَ دمشق، ووقفَ أمامَ قبر (صلاح الدين) قائلاً: "ها قد عُدنا يا (صلاحَ الدين)". وكانَ أحرى بهِ أن يقفَ خاشعاً أمامَ مَقام رجلٍ عظيم كـ(صلاح الدين)، كانَ عظيماً في انتصارهِ كما كانَ عظيماً في حربهِ وقِتالهِ، حيثُ عامَلَ الصليبيّينَ مُعاملة تفوقُ كلّ ما تُنصّ عليهِ قوانينُ الحرب، وحُقوقِ الإنسانِ الحَديثة.

أعودُ لأتحدّثَ عن هُمومِنا وشُجونِنا في القدس المُعاصِرة، لأقولَ إن إسرائيل لم تكتفِ بما احتلّتْ وما أخذَتْ وما اغتصَبَتْ عام 1948. بل إنّها بعدَ احتلالِها الثاني عام 1967، نفذّتْ عمليّات استيطانٍ هائلة على مَدى الأربعين عاماً الماضية، بنَتْ خلالها ما يُقاربُ العشرينَ مَدينة وبَلدة وتجمُعاً سُكّانيّاً، تُحيطُ بالقدس من كلّ جانبٍ إحاطةَ السُّوارِ بالمِعصَم. بنَتها وصرَفت عليها مِلياراتِ الدولارات، واستخدمَت أحسنَ وأمتنَ أنواعِ الحَجرِ الفلسطيني، دونَ حسابٍ لكُلفةٍ أو ثمن، وخِلافاً لما كانت تبنيهِ من مبانٍ ومُستعمراتٍ هشةٍ في الماضي؛ لأنّها لَم تكن واثقةً من البقاء.

ولكنّها وبعدَ عام 1967، أنشئت في القدس الكُبرى مجموعة مُتّصلة من المُدن والبَلدات، حتى إنّها سُمّيَت بأسوار القدس الجديدة، وبعضها كمَعاليه أدوميم مدينة كبيرة، تستوعِبُ زُهاءَ مائة ألف نسَمة.

أعيدُ هنا ما قلتهُ مِراراً وتكراراً أمامَ مجلس الأمن والجمعيّة العامة، والاتحادات البرلمانيّة الدُوليّة والمَحافل الدوليّة على اختلافها، بأنّ إسرائيل قد خلقت على الأرض بواسطة الجرّافات وموارد الاستيطان الهائلة، أمراً واقِعاً جديداً على الأرض، بحيثُ يتعَذرُ على أحد تغييره، لا بالضغط الدولي ولا على طاولة مُفاوضات "هيَ أصلاً غيرُ مُتكافئة"، ضِمنَ المُعطيات القائمة، ثُنائيّة كانت أو مُتعدّدَة، فالأرضُ هيَ الوطن وهيَ الحقيقة الثابتة في الوجود.

وإدراكاً منها لذلك، فقد رسمَت إسرائيل الخريطة التي تريد على الطبيعة بالجرّافات وما زالت، تطلبُ من العرب والفلسطينيّنَ التوقيعَ والاعترافَ بعُدوانها.

عندما كانت الأرضُ أرضَنا والأحياءُ أحياءَنا والبَلداتُ بلداتنا عام 1948، وجاءَ الكونت (برنادوت) مبعوث الأمم المتحدة إلى فلسطين لتنفيذ قراراتها، أدخلَ تعديلات على تلك القرارات تنُصّ على جَعل القدس كلّها، شرقيّة وغربيّة، شماليّة وجنوبيّة، قديمة وجديدة، القدسَ الكُبرى بمَجموعها ضِمنَ الدولة الفلسطينيّة العتيدة. فلا عجبَ – إذن – أن يسقطَ (برنادوت) ابنُ عمّ ملك السويد، مُضرّجاً بدمائه في القدس الغربيّة، وبتدبير من (إسحق شامير) الذي أصبحَ رئيساً لوزراء إسرائيل، واسمهُ مُدرجٌ على قائمة المُجرمين المَطلوبينَ أمنيّاً في بريطانيا.

لقد ضاعت هذه الدُرّة الغالية منّا عام 1948؛ لأنّنا لم نكن نملكُ القوّة الكافية للدفاع عنها، كانَ الإنجليز يُبلغونَنا ويُبلغونَ اليهود، بأنّهم سينسحبونَ من العَمارة كذا أو الموقع كذا بتاريخ كذا، وكانت تسقط تلكَ المواقع والأحياء، في يدِ من يملكونَ القوّة العسكريّة الجاهزة لاحتلالها.

كانت تقديرات قِياداتنا أنّ الدفاعَ عن القدس الكُبرى والاحتفاظَ بها، يحتاجان إلى قوّة نِظاميّة تَعدادُها ثلاثة آلاف مُقاتل لا أكثر، وكانَ اليهود المُحاصَرونَ على مَدى أشهرٍ في وضعٍ يائس، وعلى استعدادٍ للاستسلام تحتَ أيّ ضغطٍ جدّي يُفرضُ عليهم،

وقد كنتُ شاهداً على إحدى تلك المعارك، عندما طلبَت حامية هداسا والجامعة العبريّة الاستسلام، ولكنّ (بن غوريون) طلبَ تأجيلَ الاستسلام أربعاً وعشرينَ ساعة، توقُّعاً لمُعجزةٍ قد تقع، وكانت تلكَ المُعجزة هيَ الهُدنة الأولى المَشؤومة، التي كانت بداية الانهيار على مختلف الجبَهات.

هذه القدس الكُبرى التي تحدّثتُ عنها، بأحيائها وبيوتِها وأثاثِها وحدائقِها ومَرافقِها، كانت مدينة من أرقى مُدنِ العالم. وهيَ مِلكُ أهلِها العرب الذينَ كانَ تعدادُهم آنذاك قُرابة مائة ألفِ نسمَة، لقد سقطت بيَد أعدائِها بينَ عشيّة وضُحاها. وكانت، كما ذكرت، بيوتاً ومنازلَ مفروشة جاءَ الغُزاةُ اليهود فوَضعوا أيدِيَهُم عليها، وأسكَنوا فيها مُهاجرينَ من شتّى أصقاع المَعمورة، حتى إنّ سُكّانَ حَيّ القطمون اليوم هم من يهودِ المغرب، الذينَ تدَفقوا كَغيرِهم من يهودِ البلادِ العربيّة على فلسطين الشهيدةِ لاقتِسام مَغانِمها.

وقد أتْبعَتْ تلكَ المُمتلكات لما أسمِيَ بحارس أملاكِ العدُوّ، وحارس أملاكِ الغائبين، وإن كانَ الغائب، وخاصّةً بعدَ احتلالِ عام 1967، حاضِراً في الجُزءِ الشرقي من القدس: فكيفَ يستقيمُ وضعٌ يكونُ فيهِ الحاضِرُ غائباً، وهوَ حَيٌّ يُرزقُ وفي المدينةِ ذاتِها؟

مُمتلكات أهلِ القدس، مُسجّلة تسجيلاً تامّاً وكاملاً في سِجلاّتٍ حصَرَتها لجنة التوفيق الدُوليّة، التي أنشأتها الجمعيّة العامة للأمم المتحدة عام 1948، لتنفيذِ قراراتِها بالتقسيم وحقّ العَودةِ والتعويض، إذا رغِبَ اللاّجئ بعدَم العَودة، وفقاً للقرار 194 الصادِر في كانون الأوّل عام 1948.

لقد تعمّدْتُ في أواسِطِ السّبعينيات، وأنا سفيرُ الأردن في الأمم المتحدة، إحياءَ لجنةِ التوفيق الدُوليّة هذه بعدَ رُبعِ قرنٍ من موتِها. وعندما كانت وفودُ الدُول تسألُني عن سببِ إحياءِ هذه اللّجنة علَى الرغمِ من فشلِها وموتِها، كنتُ أقولُ لهم: إن إحياءَها الشَكَلي مُهمّ لنا، حتى نتمكّن من الحُصول على كامِلِ سِجلاّتِ اللاّجئينَ الفلسطينيّين.

وهكذا كان، وقامَ السفير الشريف (عبد الحميد شرف) – رحِمَهُ اللّه – وكنتُ معه، وابتاعَ أسطوانة مُستطيلة من أقبيَةِ الأمم المتحدة بخمسة عشرَ ألفَ دولار، تشملُ

جميع سِجلاّت الأملاك في القدس وفلسطين، وهيَ الآن بيَدِ الحُكومةِ الأردنيّة، وبيَدِ أيّةِ حُكومةٍ أو سُلطةٍ تهتمُّ بالحُصولِ عليها.

الخبيرُ الأوّل في أملاكِ اللاّجئينَ الفلسطينيّين في القدس وسائر فلسطين، هو السيد (سامي هداوي) الذي يسكُنُ في كندا، وقد بلغَ من الكِبَرِ عتيّاً. لقد كانَ يزورني في الأمم المتحدة حاثّاً على وُجوبِ تحديثِ سِجلاّتِ أملاكِ اللاّجئين، ولكن لسوءِ الحظّ، لم تكن الحُكوماتِ العربيّة – باستِثناءِ الأردن– تستجيبُ لطلبِه.

أملاكُ أهلُ فلسطين بما فيها القدس، كانت تُقدّرُ في الخمسينيات بمئاتِ ملايين الدولارات. وهيَ بمَقاييسِ اليوم تصلُ إلى مئاتِ المِليارات، لو وجدَت من يقفُ مُدافِعاً عنها مُطالِباً بها. مع تأكيدِ أنّ أهل القدس وضواحيها، لا يقبلونَ عن العَودةِ بديلاً.

إسرائيل تريدُ بطبيعةِ الحال، تصفيةَ هذهِ المُتلكاتِ والحُقوق بوَسيلَتيْن:

الأولى: ادّعاءاتها أنّ صِيانةَ تلك المُتلكات، قد كلّفَها من النفقاتِ ما يفوقُ الإيجارات التي حُصلتْ منها، حتى إنّ أيّ مُطالبٍ بها على المُستوى الفردي، سوفَ يجدُ من مصلحته عدمَ المُطالبةِ بها، لئلاّ تُلاحقهُ السُّلطاتِ الإسرائيليّة بضرائب ونفقاتِ صِيانة لا قِبَلَ لهُ بها، إنّها عمليّةُ سَلبٍ وسَطوٍ مُخطّطٍ لها بعِناية، ومع سِبْقِ إصرار.

الوسيلةِ الثانية: رَبطُ حُقوق اللاّجئينَ في التعويض، بموضوعِ أملاكِ اليهود في البلادِ العربيّة، وهو موقفٌ عَشوائي عُدواني مُخالفٌ لجميع القوانين والشرائع الدُوليّة. إذ ما عَلاقة صاحبُ منزلٍ في القطمون، بتاجرٍ يهودي قادم من بغداد أوَ صنعاء أو القاهرة أو غيرها، تخلّى عن وطنه الأصلي ورحلَ إلى فلسطين ليَحتلّ مكانَ الفلسطيني، الذي أرغِمَ بالحديدِ والنار على الجَلاءِ عن وطنِه؟

لا أدري كيفَ ستُعالجُ السُلطة الفلسطينيّة والدُول العربيّة، هذا الموضوع الخطير؟ ومتى؟ كما أنّ الأملاكَ والأوطانَ من حيثُ المَبدأ، غيرُ خاضعةٍ لبَيْعٍ أو شراء، ويجبُ أن يتمّ التعامُل معها على مُستوى دُولي وقانوني وقضائي، وبدِقةٍ ونزاهةٍ وتجرّدٍ، يجبُ أن يكونَ واضحاً أنّ هناكَ فرقاً أساسيّاً بينَ السّلبِ والنّهبِ من جهة، وبينَ الحُقوقِ والقِيَمِ المَشروعةِ من جهةٍ أخرى. ويجبُ منذَ الآن بَذلُ

جُهودٍ مُكثفَة لحَصْرِ هذهِ الحُقوق واستِحقاقاتِها، بالطرُقِ العِلميّةِ والاقتصاديّةِ المعروفة.

إنّ إسرائيلَ تُطالبُ سويسرا بثمنِ ذهبِ الأسنان، الذي تدّعي أنّهُ سُرقَ من يهودِ أوروبا إبّانَ الحربِ العالميّةِ الثانية، فلماذا نتقاعسُ عن طلبِ حُقوقٍ، بَنيناها بعَرقِ جَبينِنا ومُدّخراتِنا وجُهودِنا؟

ليتَ الأمرَ يقفُ عندَ حَدّ الأملاك، على أهميّتِها وشَرعيّتِها وحُقوقِها واستِحقاقاتِها، وخاصّةً أنّنا نعيشُ في عَصرٍ يَتباهى فيه أقطابُ دُولهِ وشُعوبه، بأنّه عَصرُ احترامِ حُقوقِ الإنسان، ويُؤكّدونَ صَباحَ مَساء أنّها حُقوقٌ مُقدّسة لا يجوزُ التطاولُ عليها. كوبا على سبيلِ المِثال، ما زالت تُعاني الحِصار والعُقوبات؛ لأنّها أمّمَتْ أملاكاً لشركاتٍ وأفرادٍ أمريكيّين، فلماذا التفاوتِ في التعامُل؟

وما أهمُّ من المُمتلكاتِ هو الوطنُ نفسُه، وفي القلبِ منهُ مدينة القدس المُقدّسة، منذ وُضِعَ فيها أوّلُ حَجرٍ قبلَ خمسةِ آلاف إلى ستةِ آلافِ عام.

كنتُ أتحدّثُ عن قدسٍ واحدةٍ مُوحّدَة، غالبيّتها – مُمتلكات وسُكّاناً وأحياء – عربيّة حتى النّخاع، تمتدُّ غرباً حتى عينِ كارم، والمالحة وقالونيا ولفتا وغيرها ممّا ذكرت، ويعترفُ لنا بها المجتمعُ الدَّولي مُمثلاً بالأمم المتحدة.

إسرائيل تحاولُ إبعادَنا عن مدينةِ القدس التاريخيّة، بمُناوراتٍ ومُؤمراتٍ ساذجةٍ مَكشوفة. كاقتراحها مثلاً، بجَعل أبو ديس عاصمة للدولةِ الفلسطينيّة، وتسمّيها القدس، بينما هيَ تستولي على القدس الغربيّةِ والشرقيّة وتسمّيها أورشاليم. والأدهى من ذلك، طلبها ألا يُطلقَ على القدسِ الفلسطينيّة، حتى وإن تمّ نفيَها جُغرافيّاً، اسمُ Jerusalem بالإنجليزيّة، وهو الاسمُ المُتعارفُ عليه عالميّاً، بل كتابة اسمُ القدس "Al-Quds"، ومن ثم تغييبُ مدينةِ القدس العربيّة عن مَفاهيمِ العالم.

وقد ظهرَت بعضُ بوادرِ هذا التوجّهِ المرفوض، عندما وُضِعَ شِعارٌ لمدينةِ القدس، بمناسبةِ الاحتفالِ بها عاصمةً للثقافةِ العربيّة، والشِعارُ المُشارُ إليه هو "القدس"، بالأحرفِ العربيّةِ واللاّتينيّة.

هذه ليست القدس التي نعرفُها ويعرفُها العالم على امتدادِ آلافِ السنين، ونأملُ ألا يلعبَ أحدٌ بالنار، بمثلِ التحايُل الذي تريدُ سُلطاتُ الاحتلالِ بهِ، إخراجَ القدس من الوطن العربي والإسلامي والمسيحي.

ويجبُ علينا جميعاً -عرباً ومُسلمينَ ومسيحيّن، فلسطينييّنَ وأردنييّن، مَقدسييّنَ وغيرَ مَقدسيين- أن نكونَ مُستعدّينَ لوَقفةِ عزٍّ تاريخيّة، نقولُ فيها: "لا" بملءِ أشداقِنا وأعلى أصواتِنا ومن صَميم قلوبِنا، فالقدسُ لا تخضعُ للمُساومات، ولا يمكنُ أن نتخلّى عنها طالَ الزمنُ أو قصُرَ. فهيَ قدسُ الجهادِ والرباط، قدسُ العُروبةِ والإسلام، قدسُ (محمد) و(عيسى) و(عُمر بن الخطاب) و(خالد بن الوليد) و(صلاحِ الدين)، وأرتالِ المُجاهدينْ والعُلماءِ والشُهَداءِ على مَرّ الدُهورِ والأحقاب.

فلنعرف حقّها علينا، ولنواصل الصِراعَ والكِفاحَ والتزاحُمَ بشتّى الوسائلِ المُتاحة، حتى تزولَ غُربتُها وتعودَ كما كانت على امتدادِ التاريخ: الدُرّةَ فوقَ جبينِ هذهِ الأمّة.

* * *